جهود "ابن جنّي" الصّوتية وتجلّياتها في الدّرس الصّوتي الحديث

The efforts of "Ibn Jinni" and their manifestations in the modern audio lesson

د. سليماني نجاة ، nadjat.slimani@gmail.com

جامعة حسيبة بن بوعلي–الشلف (الجزائر)

تاريخ الارسال.2021/01./02	تاريخ القبول 2021/05/27	تاريخ النشر 2021/12/15

الملخص

يعدّ "**ابن جنّي**" رائداً من روّاد الدّراسات اللّغوية، لاسيما الصّوتية، إذ اكتشف العديد من الظّواهر الصّوتية، وبيّن مميّزاتها ودلالاتها، هذا فضلاً عن اهتمامه بالصّوت وقيمته الوظيفية وقد شكّلت اجتهاداته اللّبنة الأساسية التّي انطلقت منها الدّراسات الصوتية الحديثة والمعاصرة، ونظراً للأهمّية التّي تنعم بها جهود "**ابن جني**" الصّوتية فإنّ هذه الورقة البحثية، تهدف جاهدة إلى استظهار أهمّ تلك الجهود، وإبراز دورها في إثراء الدّرس اللّغوي عامة والصّوتي خاصة ومن ثمّ استجلاء أثرها في الدّرس الصوتي الحديث، وتبيين مدى تأثيرها عليه.

كلمات مفتاحية: الصوت؛ الحرف؛ الحركات؛ الدلالة الصوتية؛ النظام الصوتي؛ الإدغام.

Abstract

Ibn Jinni was considered a pioneer in linguistic studies, especially phonetics. Among the phonological phenomena, and explaining its characteristics and implications, in addition to his interest in sound and its functional value. To highlight the most important of those efforts, and highlight their role in enriching the linguistic lesson in general and the phonetic lesson in particular And then to explore its impact on the modern audio lesson, and to show the extent of its impact on it.

Keywords :the sound; Character; Movements; Phonemic connotation; Audio system; Slurring.

المؤلف المرسل: د.نجاة سليماني، **الإيميل**: nadjat.slimani@gmail.com

1. مقدمة:

يشكّل "**ابنجنّي**" عَلماً من أعلام اللّغة العربية، إذ أسهم بمختلف جهوده اللّغوية في خدمتها وتطويرها، لاسيما الصّوتية، باعتبار أنّ الصّوت هو العنصر الجوهري في البناء اللّغوي، ويظهر ذلك جليّاً في تعريفه للّغة، إذ يقول: « إنّها أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم»[1]، أي إنّ اللّغة أداؤها الأصوات، ولذا أولى علم الأصوات عناية فائقة، خاصة في مؤلفيه "**الخصائص**" و"**سرّ صناعة الإعراب**"، فقد أفرد له عدّة أبواب ومباحث تعالجهمن حيث تحديد عناصر الصّوت الأساسية (الصوامت والصوائت)، وتبيين مخارجه من خلال الجهاز النّطقي لدى الإنسان وصفاته، هذا فضلا عمّا اكتشفه

من ظواهر صوتية ذات أهمّية بالغة في الدّراسات الصّوتية الحديثة والمعاصرة، كالدّلالة اللّفظية أو الدّلالة الصوتية، واهتمامه بالقيمة الوظيفية للصّوت.

وتمارس جهود "**ابنجنّي**" الصّوتية خاصة، واللّغوية عامة دوراً فعّالا في الدّراسات الحديثة والمعاصرة، فقد كانت نقطة بدء للعديد من الباحثين والدّارسين المهتمّين بالدّرس الصّوتي،محاولين التّوسع فيها أكثر، وفق ما تقتضيه الدّراسة المتطوّرة، لاسيما وأنّه «تميّز عن غيره بخاصية التّبرير العقلي الّتي تعدّ بوابة تؤسّس لنظرية صوتية، تحيل إلى التّكامل بين النّحو والصّرف والصّوت والدّلالة، وتتجاوز حدود المكان والزّمان»[2]، ونظرا للأهمّية الّتي تتمتّع بها إسهامات "**ابنجنّي**" الصّوتية، فإنّ هذه الورقة البحثية تسعى جاهدة إلى دراسة الموضوع، وذلك انطلاقا من معالجة الإشكالية الآتية: ما هي جهود "ابن جنّي"الصّوتية؟ وفيما تتجلّى آثارها في الدّرس الصّوتي الحديث؟ وهذا بعد التّعريف المختصر بشخصيته، مستعينة في بلوغ هدفها بالمنهج الوصفي التّحليلي.

2–التّعريف بشخصية "ابن جنّي"[3]:

هو أبو الفتح عثمان بن جنّي الموصلي النّحوي المشهور، من أصل غير عربي، وكان أبوه جنّي مملوكاً روميا لسليمان بن فهد بن أحمد الأزدي الموصلي، فانتسب أزديا بالولاء، أمّا مولده، فكان قبل الثلاثين والثلاثمائة بالموصل، أي حوالي 322هـ أو 321هـ، وذلك عملا بوفاته وهو في سنّ السّبعين والّتي كانت يوم الجمعة لليلتين بقيتامن صفر سنة اثنين وتسعين وثلاثمائة(392هـ) ببغداد.

وكان "**ابنجنّي**" إماما في علم العربية، قرأ الأدب على الشّيخ"**أبي علي الفارسي**"الّذي رافقه وصحبه أربعين سنة، « وكان من حذّاق أهل الأدب وأعلمهم بعلم النّحو والتّصريف، فإنّه لم يصنّف أحد في التّصريف، ولا تكلّم فيه أحسن ولا أدقّ كلاما منه»[4]، هذا فضلا عن كونه رجل جدّ، وامرأ صدق في قوله وفعله، وواسع الرّواية والدّراية في اللّغة العربية، ويقول الشّعر ويجيده، ولذا أوتي حظّاً من الشّهرة العلمية في حياته، أمّا مذهبه النّحوي، فكان بصرياً كشيخه "**أبيعلي**"، وعُرف بالنّحوي، وإن كان إماما في النّحو والصّرف، إلاّ أنّ إمامته في النّحو أمثل منها في الصّرف.

وصنّف "**ابنجنّي**" في النّحو والتّصريف كتبا أبدع فيها، تدلّ على فضله الجمّ، وعلمه الغزير ونذكر منها:الخصائص،والتّمام في شرح شعر الهذليين، وسرّ صناعة الإعراب، والمنصف في شرح تصريف أبي عثمان المازني، والتّلقين في النّحو، والتّعاقب، والكافي في شرح القوافي للأخفش، والمذكّر والمؤنّثوالمقصور والممدود، والمقتضب في معتلّ العين، واللّمع، والتّنبيه، والمهذب، والتّبصرة، وغير ذلك.

3–جهود "ابن جنّي" الصوتية وآثارها في الدّرس الصّوتي الحديث:

نهج "**ابنجنّي**" في دراسة الصّوت نهجاً مغايرا لسابقيه "**الخليل**" (ت 175هـ) و "**سيبويه**" (ت 180هـ)، وألّف له كتاباً خاصاً سمّاه "سرّ صناعة الإعراب"، فقد أبدع فيه عددا من المبادئ والتّأصيلات الصّوتية الّتي كانت وماتزال منبعا لا ينفد ينهل منه الباحث مادّته الصّوتية، وتعرّض في مقدّمته لكلّ حرف من حروف اللّغة على حده، بهدف ذكر أحوالها جميعا، مفردة كانت أم مأخوذة من بناء تركيبي، ويظهر ذلك في قوله: « وليس غرضنا في هذا الكتاب ذكر هذه الحروف مؤلّفة، لأنّ ذلك كان يقود إلى استيعاب جميع اللّغة، وهذا ممّا يطول جدّاً، وليس عليه عقدنا هذا الكتاب، وإنّما الغرض فيه ذكر أحوال الحروف مفردة، أو منتزعة من أبنية الكلم الّتي هي مصوغة فيها لما يخصّها من القول في أنفسها وأقْرو ذلك شيئاً فشيئاً على تأليف حروف المعجم دون مدارج الحروف كما آثرت بل أمرت»[5].

فالمتمعن في كتاب "سرّ صناعة الإعراب" يتأكّد من كونه « مخطّطا حقيقيا لعلم الأصوات متكامل العدّة والأسباب، من خلال المفردات الصّوتية الفذّة الّتي بحثها وصنّف القول فيها، مبتدئا بتعداد حروف المعجم وضبط أصولها صوتيا، وإيغاله في وصف مخارج الحروف وصفا دقيقا، وتقسيمه الأصوات إلى الأقسام الّتي لم يزد عليها علم الأصوات الحديث جزءا ذا بال، وخوضه لما يعرض على الحروف

من حذف وترخيم وإعلال وإبدال وإدغام وإشمام، يضاف إلى هذا رهافة صوتية متأنّقة،وذهنية لغوية وقّادة»[6]، وعليه فهو يجمع بين اللّغة والصّوت ويجعلهما كلّا متكاملا في استيعاب البناء اللّغوي ولا يمكن الاستغناء عن أيّ منهما.

ويتبيّن أنّ "**ابنجنّي**" كان يغرض إلى دراسة الصّوت اللّغوي دراسة قائمة بذاتها،باعتباره علماً من علوم اللّغة كالنّحو والصرف، وهو أوّل من استعمل مصطلح علم الأصوات، وهو المصطلح العربي الأصيل الّذي استقرّ عليه الدّرس الصّوتي الحديث، ومازلنا نستعمله إلى يومنا هذا، وأسرّ على الاجتهاد والإبحار والبحث والتّنقيب في هذا العلم والكشف عن أسراره على الرّغم ممّا سيواجهه من مشقّة وعناء، إذ يقول: « وسأتجشّم لطاعتك المضضَ بانكشاف أسرار هذا العلم»[7]، وقد وفّق

إلى حدّ كبير في تحقيق ما طمح إليه في هذا العلم، إذ عرض جميع أحكام حروف المعجم العربي، وبيّن أحوال كلّ حرف منها من حيث المخرج والمدرج والصنف والجهر والهمس، والشدّة والرّخاوة،والصّحيح والمعتلّ، والمطبق والمنفتح، والسّاكن والمتحرّك والمكرّر ...إلخ.

وإذا كان "**ابنجنّي**" لم يصف الجهاز الصّوتي للأحرف، وصفاً شاملا، فإنّه ذكر معظم الأعضاء الّتي يتألّف منها من خلال تعريفه للصّوت، إذ يقول: « اعلم أنّ الصّوت عَرَض يخرج مع النّفس مستطيلا متّصلاً، حتّى يعرض له الحلق والفمّ والشّفتين مقاطع تثنّيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفاً، وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها»[8]، أي إنّ الصّوت يخرج مع النّفس من الصدر على شكل مقاطع، وذلك انطلاقاً من الحلق مروراً بالفمّ وصولاً إلى الشّفتين، ويعبّر كلّ مقطع منها عن حرف من حروف المعجم العربي، وبهذا يختلف صدى كل صوت باختلاف مخارج حروفه.

ويشير "**ابنجنّي**" من خلال هذا النّص إلى مصطلح المقطع، وذلك من خلال استعماله للفظتي المقطع والمقاطع، ولكن بمفهوم مغاير لما يقصده العلماء المحدثون بالمصطلح، فالمقطع عنده هو الجزء

الّذي يقطع فيه الهواء عند خروجه من الرّئتين مرورا بالحلق والفم والشّفتين، إلّا أنّه كان يفقه فكرة المقاطع باعتباره كان يعرف للعربية نظاما تسير عليه، وتبنى صيغها وفقه، لذلك علّل للصّيغ المرفوضة بظواهر لغوية كالإعلال والإبدال والإدغام، وغيرها، أو بتعليلات صوتية بسيطة، كالثّقل وقوة الكلفة في النّطق[9].

ونجد "**ابنجنّي**"يعلّل بعض الصّيغ المرفوضة في قوله: « ولا احتمال الطّبيعة وقوع الألف المدّة الساكنة بعد الكسرة ولا الضمّة قبلها، فهذه علّة برهانية ولا لبس فيها، ولا توقّف للنّفس عنها، وليس كذلك قلب واو عصفور ونحوه ياء إذا انكسر ما قبلها، نحو: عصيفير وعصافير، ألا ترى أنّه قد

يمكنك تحمّل المشقّة في تصحيح هذه الواو بعد الكسرة؛ وذلك بأن تقول: عصيفِوْر وعصافِوْر، وكذلك نحو: موسر، وموقن، وميزان، وميعاد؛ لو أكرهت نفسك على تصحيح أصلها لأطاعتك عليه، وأمكنتك منه؛ وذلك قولك: مؤزان، ومؤعاد، وميْسر، وميْقن، وكذلك ريح وقيل؛ قد كنت قادرا أن تقول: قِوْل ورِوْح؛ ولكن مجيئ الألف بعد الضّمة أو الكسرة أو السّكون محال، ومثله لا يكون، ومن المستحيل جمعك بين الألفين المدّتين؛ نحو: كساء قبل إبدال الألف همزة، وهو خطّا كسااً أو قضاا، فهذا تتوهمه تقديرا

ولا تلفظ به البتّة»[10].

ويتّضح من هذا النّص أنّ "**ابنجنّي**" كان على وعي تامّ بفكرة المقطع، ويظهر ذلك جليّا من خلال تعليلاته لبعض الصّيغ المرفوضة في اللّغة العربية بظواهر لغوية أو صوتية كان لها أثرها في الدّرس الصّوتي الحديث، كالإعلال والإبدال والإدغام وعدم التقاء السّاكنين وغيرها، طلبا للخفّة، كما في لفظي موزان وموعاد، فانقلبت الواو ياء تحت تأثير الكسرة، فصارت ميزان وميعاد بعد أن اتّحد الصّوتان (الكسر والواو) بانقلاب الواو ياء مدّية تجنّبا لما هو مكروه[11]،الأمر الّذي يساعد المتكلّم على نطق المقاطع الصّوتية بسلاسة ويسر، وعدم النّفور منها لثقلها، كالكلمات الّتي تزيد عن ثلاثة مقاطع قصيرة(ص ح)

وهي المقاطع الّتي تتألّف من صامت+ صائت، إذ لا يجوز تتابع أربعة مقاطعقصيرة في النّظام المقطعي للّغة العربية.

أمّا الحروف التّي اتّسعت مخارجها، فهي ثلاثة عنده: الألف، ثم الياء، ثم الواو، وأوسعها وألينها الألف، إلاّ أنّ أصواتها في النّطق تختلف باختلاف مخارجها، إذ «فلمّا اختلف أشكال الحلق والفمّ والشفتين مع هذه الأحرف الثلاثة، اختلف الصّدى المنبعث من الصّدر، وذلك قولك في الألف "أَ اْ"، وفي الياء "إِ يْ"، وفي الواو "أُ وْ"»[12]، فكلّما اختلفت واتّسعت مخارج الحروف، امتدّت أصواتها واستطالت واختلفت أجراسها.

وميّز "**ابنجنّي**" بين الصوت والحرف، فالصّوت «مصدر صات الشيء يصوتُ صوتاً، فهوصائت، وصوّت تصويتاً، فهو مصوّت، وهو عام غير مختلف، يقال سمعت صوت الرجل وصوتالحمار»[13]، أي إنّ الصّوت عرض عام يشترك فيه الإنسان والحيوان، فكلاهما يصدر أصواتاً، وبالتّالي

فهو صفه مشتركة بينهما، أمّا الحرف، فيراد به «حدّ الشيء وحدّته»[14]، أو «أنّ الحرف حدّ منقطع الصّوت وغايته وطرفه»[15]، وعليه فقد يعبّر الحرف عن الصّورة الخطّية للصّوت، والصّوت الصّورة المنطوقة والمسموعة للحرف، وقد يشكّل كل حرف عدداً من الأصوات تنتمي إليه.

ويقرن "**ابنجنّي**" علم الأصوات بالموسيقى أو الإيقاع، إذ يقول:« أعني علم الأصوات والحروف له تعلّق ومشاركة للموسيقى، لما فيه من صنعة الأصوات والنّغم»[16]، ولتوضيح ذلك عقد مقارنة بين الجهاز الصّوتي لدى الإنسان والنّاي والعود، فيقول: « إنّ الصّوت يخرج فيه مستطيلا أملس ساذجا، كما يجري الصّوت في الألف غفلا بغير صنعة، فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة، وراوح بين عمله اختلفت الأصوات، وسمع لكل خَرْق منها صوت لا يشبه صاحبه، فكذلك إذا قطع الصّوت في الحلق والفمّ باعتماد على جهات مختلفة كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة»[17].

وهكذا، فإنّ أجراس وأصداءحروف المعجم تختلف باختلاف مخارجها، مثلما تختلف الأصوات الصادرة من النّاي باختلاف مواضع أنامل الزامر على خروقه، والظّاهر أن "**ابنجنّي**" كان واعيا بالتّنغيم وأهمّيته الصوتية والإيقاعية، ودوره الفاعل في إظهار المعنى والدّلالة.

ويرى "**ابنجنّي**" أن الحركات أو الصوائت هي بعض حروف المدّ، إذ يقول: « اعلم أنّ الحركات أبعاض حروف المدّ واللّين، فكما أنّ هذه الحروف ثلاثة، فكذلك الحركات ثلاث، وهيالألف والياء، والواو، فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو»[18]، بمعنى إذا تمّ إشباع أيّ حركة من الحركات (الفتحة والكسرة، الضمّة)، صارت حركات مطوّلة، وهي حروف المدّ

(الألف والياء والواو)، وتزداد أصواتها امتدادا واستطالة، ممّا يكسبها رنينا موسيقيا متناميا يسهم في توليد المعاني الإيحائية، إذ « ألا ترى أنّ الألف والياء والواو اللّواتي هي حروف توامّ كوامل، قد تجدهن في بعض الأحوال أطول وأتمّ منهنفي بعض»[19].

أمّا تسميتها بالحركات، فـ «لأنّها تقلق الحرف الذّي تقترن به، وتجتذبه نحو الحروف الّتي هي أبعاضها»[20]،أي إنّ الحركة عندما تلتحق بالحرف تغيّره وتجتذبه نحو حروف المدّ، فالفتحة نحو الألفوالكسرة نحو الياء، والضّمة نحو الواو، كما تزيل محلّه في حال سكونه، وبهذا فللحركات تأثير على المعنى وأيّ تغيير فيها، قد يؤدّي إلى تغيّر المعنى.

وأصول حروف المعجم العربي عند "**ابنجنّي**" تسعة وعشرين حرفاً، أوّلها الألف وآخرها الياء، وبذلك فهو يخالف "**أباالعباسالمبرّد**" (ت 286هـ)، فكان يعدّها ثمانية وعشرين حرفاً، وأوّلها الباء وأسقط الألف لعدم ثبوت صورتها، إلاّ أنّ "**ابنجنّي**" لم يرض بالأمر، لأنّ « الألف الّتي في أوّل حروف المعجم هي صورة الهمزة في الحقيقة»[21]، ولا يجوز إسقاطها أو تجاهلها.

ويرتّبها "**ابنجنّي**" تبعاً لترتيب المخارج على النحو الآتي[22]: الهمزة، والألف، والهاء، والعين والحاء، والغين، والخاء، والقاف، والكاف، والجيم، والشين، والياء، والضاد، واللّام، والرّاء والنّون، والطاء والدال، والتّاء، والصاد، والزاي، والسين، والظاء، والذال، والثاء، والفاء، والباء والميم، والواو، وعليه فهو يخالف ترتيب "**الخليل**" في كتاب العين، ويوافق ترتيب "**سيبويه**" ويراه التّرتيب الصّحيح، إذ يقول: « فهذا هو ترتيب الحروف على مذاقها وتصعّدها، وهو الصّحيح فأمر ترتيبها في كتاب العين فيه خطل واضطراب ومخالفة لما قدمناه آنفاً ممّا رتبه سيبويه، وتلاه أصحابه عليه، وهو الصّواب الذي يشهد التّأمل
له بصحته»[23].

وأضاف "**ابنجنّي**" إلى الحروف التّسعة والعشرين ستة أحرف قد تلحقها وتتفرع عنها، فتصبح خمسة وثلاثين حرفا، «وهذه الستّة حسنة يؤخذ بها في القرآن وفصيح الكلام، وهي النون الخفيفة، ويقال الخفية، والهمزة الخفيفة، وألف التفخيم، وألف الإمالة، والشين الّتي كالجيم، والصاد الّتي كالزاي»[24].

وحدّد "**ابنجنّي**" مخارج الحروف وحصرها في ستة عشر مخرجاً، وهي كالآتي[25]:

ثلاثة منها في الحلق: فأوّلها من أسفله وأقصاه مخرج الهمزة والألف والهاء.

ومن وسط الحلق مخرج العين والحاء.

وممّا فوق ذلك مع أوّل الفم مخرج الغين والخاء.

وممّا فوق ذلك من أقصى اللّسان مخرج القاف.

ومن أسفل من ذلك وأدنى إلى مقدم الفم مخرج الكاف.

ومن وسط اللّسان، بينه وبين وسط الحنك الأعلى، مخرج الجيم والشين والياء.

ومن حافة اللّسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد، إلّا أنّك إن شئت تكلفتها من الجانب الأيمن، وإن شئت من الجانب الأيسر.

ومن حافه اللّسان من أدناها إلى منتهى طرف اللّسان، من بينهما وبين ما يليها من الحنك الأعلى، ممّا فويق الضاحك والناب والرّباعية والثنّية، مخرج اللام.

ومن طرف اللّسان بينه وبين ما فويق الثنايا مخرج النون.

ومن مخرج النون غير أنّه أدخل في ظهر اللّسان قليلا لانحرافه إلى اللام مخرج الراء.

وممّا بين طرف اللّسان وأصول الثنايا مخرج الطاء والدال والتاء.

وممّا بين الثنايا وطرف اللّسان مخرج الصاد والزاي والسين.

وممّا بين طرف اللّسان وأطراف الثنايا مخرج الظاء والذال والثاء.

ومن باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العلا مخرج الفاء.

وممّا بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو.

ومن الخياشيم مخرج النون الخفية، ويقال الخفيفة، أي الساكنة.

وتنقسم الحروف عند "**ابنجنّي**" في اختلاف أجناسها إلى صفات أو انقسامات، وهي[26]:

انقسامها إلى الجهر والهمس، أي منها المجهور والمهموس، فالمهموسة عشرة أحرف هي: الهاء والحاء، والخاء، والكاف، والشين، والصاد، والتاء، والسين، والثاء، والفاء، ويجمعها في اللّفظ قولك
"ستحثك خفصة"، وباقي الحروف مجهور، وهي تسْعة عشر حرفاً، إلاّ أن الميم والنون فيهما غنّة.

وانقسامها إلى الشدّة والرّخاوة، وما بينهما، فالشديدة ثمانية أحرف وهي: الهمزة، والقاف والكاف، والجيم، والطاء، والدال، والتاء، والباء، ويجمعها في اللّفظ "أجدت طبقك" و"أجدك طبقت" والحروف التي بين الشدّة والرخاوة ثمانية أيضاً، وهي: الألف، والعين، والياء، واللام، والنون والراء، والميم والواو، ويجمعها في لفظ "لَمْ يروّعْنَا"، وما سوى هذه الحروف والّتي قبلهاهي الرّخوة.

وانقسامها إلى الاطباق والانفتاح، فالمطبقة أربعة، وهي: الضاد، والطاء، والصاد، والظاء وما سوى ذلك فمفتوح غير مطبق.

وانقسامها إلى الاستعلاء والانخفاض، فالمستعلية سبعة أحرف، وهي: الخاء، والغين والقاف والضاد، والطاء، والصاد، والظاء، وما عدا هذه الحروف فمنخفض.

وانقسامها إلى الصّحة والاعتلال، فجميع الحروف صحيح، إلاّ الألف والياء، والواو، اللّواتي هن حروف المدّ والاستطالة، بيد أنّ الألف أشدّها امتدادا وأوسعها مخرجا، وهو الحرف الهاوي.

وانقسامها إلى الأصل والزيادة، وحروف الزيادة عشرة، وهي: الهمزة، والألف، والياء، والواو والميم، والنون، والسين، والتاء، واللام، والهاء، ويجمعها في اللّفظ قولك: "اليوم تنساه".

ومنها المنحرف وهو اللّام، والمكرّر وهو الراء، وحروف القلقلة، وهي: القاف، والجيم، والطاء والدال، والباء، وذلك لأنك لا تستطيع الوقوف عليها إلاّ بصوت لشدّة الضغط، والحفز وحروف الذلاقة وهي ستة: اللام، والراء، والنون، والفاء، والباء، والميم، لأنّه يعتمد عليها بذلق اللّسان، وباقي الحروف مصمت.

واستحسن "**ابنجنّي**" المناوبة والتّبديل والمخالفة بين حروف المعجم في تركيب الكلام لاسيما وأنّ لكلّ صوت ذوقه الخاص، إذ يقول: «فإذا اختلفت أحوال الحروف حسن التّأليف»[27]، ولذا ينبغي أن تتباعد الحروف في المخارج أثناء التّأليف، لأنّ «الحروف كلّما تباعدت في التّأليف كانت أحسن، وإذا تقاربا الحرفان في مخرجيهما قبح اجتماعهما»[28]، وبهذا يكتسب اللّسان سلاسة في التّلفظوتلقى استحسانا في السّمع.

ويدرك المتتبّع لمسيرة "**ابنجنّي**" الصّوتية في دراسته الدّقيقة والمركزة للصّوت ومخارج حروفه وصفاته، أنّها تماثل ما يسمّيه "**ديسوسور**" بالنّظام الصّوتي (فونولوجي) phonology، وهو « علم

مساعد مختص بالكلام فقط»[29]، في حين يدرس علم الأصوات (فونيتيك)phonetics تطوّرات الأصوات تاريخيا.

ولا مراء أنّ "**ابنجنّي**" كان عالماً بالدّلالة الصّوتية المستمدة من طبيعة الأصوات ذاتها[30] والّتي تتحقّق في نطاق تأليف مجموع أصوات الكلمة المفردة، فترمز إلى معنى معجمي[31]، إلاّ أنّه سمّاها بالدّلالة اللّفظية، وذلك قبل أن تتوسّع في دراستها اللّسانيات الحديثة بقرون، فقد أولاها عناية خاصة

في كتابه "الخصائص"، وأفرد لدراستها عدّة أبواب، باعتبارها أقوى الدّلالات،إذ يقول: « أعلم أنّ كلّ واحد من هذه الدّلائل معتدّ مراعى مؤثر، إلاّ أنّ القوّة والضّعف على ثلاث مراتب: فأقواهن الدّلالة اللّفظية، ثمّ تليها الصّناعية، ثمّ تليها المعنوية»[32].

فتمارس كلّ دلالة من الدّلالات الثلاث دوراً فعّالا في تحديد المعنى وإبرازه، ولكن الدّلالة اللّفظية أقوى الدّلالتين الصناعية(الصرفية)، والمعنوية(النّحوية)، وعلّته في ذلك أنّ معرفتها تقوم أساساعلىالأصوات التي تتألّف منها الكلمة، إذ «ألا ترى إلى قام ودلالة لفظه على مصدره»[33]، أي إنّ لفظة "قام" وبفعل وحداتها الصّوتية أفادت معنى الحدث، ألا وهو القيام، وعليه فإنّ الدّلالة الصّوتية هي العلاقة بين الأصوات الّتي تؤلّف اللّفظة ومدلولها، وأيّ تغيير فيها يؤدّي إلى تغيّر المعاني.

وتنقسم الدّلالة الصوتية عند "**ابنجنّي**" إلى قسمين: دلالة صوتية طبيعية، ودلالة صوتية تحليلية.

1.3-الدّلالة الصّوتية الطّبيعية:

والمراد بها ما تؤدّيه الأصوات الصادرة عن مظاهر الطبيعة المختلفة، وأصوات الإنسان والحيوان من أدوار في تحديد المعنى، فهي متعلّقة بنظرية المحاكاة أي تقليد أصوات الطبيعة في نشأة اللّغة

أو ما يعرف بالعلاقة الطبيعية بين الدّال والمدلول[34]، وبالتّالي، فإنّ لأصوات الطبيعية المسموعة أثر في نشأة اللّغة، وهذا ما ذهب صوبه "**ابنجنّي**" حين قال: «إنّ أصل اللّغات كلّها إنّما هو من الأصوات المسموعات، دوي الريح، وحنين الرّعد وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس ونزيب الظبي، ونحو ذلك»[35].

ويرى " **ابنجنّي**" أنّ الألفاظ تقابل ما تعبّر عنه من أحداث من خلال الأصواتالّتي تؤلّفها إذ يقول: «أمّا مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث، وذلك أنّهم كثيراً ما يحملون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبّر عنها، فيعدّلونها ويحتذونها عليها، وذلك أكثر ممّا نقدّره، وأضعاف

ما نستشعره، من ذلك قولهم: خضِم، وقضِم، فالخضم لأكل الرّطب والقضم للصلب اليابس، فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس، حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث»[36].

ويتراءى أنّ "**ابنجنّي**" كان واعيا بالعلاقة الطبيعية الّتي تربط بين الألفاظ وما تؤدّيه من دلالة ومعان، انطلاقا من التّشاكل الصّوتي الّذي يؤلّفها.

2.3–الدّلالة الصّوتية التّحليلية:

وهي ترتبط بالحروف والحركات، أو الصوامت والصوائت أو الفونيمات التّركيبية والفونيمات غير التّركيبية (النبر، التنغيم، الوقف ...إلخ)، وأطال"**ابنجنّي**" في الحديث عن هذا النّوع من الدّلالة وبيّن مظاهرها بالتقصّي والاستدلال والتّحليل وخصّ لها عدّة أبواب، منها: (باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني، وباب امساس الألفاظ أشباه المعاني، ...)[37]، ونظرا لضخامة المادة، وتشعّب مظاهر الدّلالة

الصّوتية التّحليلية، فإنّه لا يسعنا المجال لذكرها جميعها، ولذلك سنكتفي بدلالة الصّوت وأثره في تغيير المعنى.

وأدرك "**ابنجنّي**" فكرة الفونيم، وذلك من خلال ظاهرة استبدال صوت بصوت، أو ما يعرف عند المحدثين باستبدال فونيم مكان الآخر، وأوضح مدى تأثير ذلك في المعنى، لا سيما من حيث المخارج وقوة الصّوت وضعفه، إذ يقول: «ومن ذلك قولهم: صعد وسعد، فجعلوا الصاد لقوتها مع ما يشاهد من الأفعال المعالجة المتجشمة، وجعلوا السين لضعفها، فيما تعرفه النّفس وإن لم تره العين»[38].

فأدّى استبدال صوت أو فونيم الصاد بصوت السين إلى تغيّر المعنى، وذلك تبعاً لتغيّر مخارجهما وصفاتهما، وعليه، فإنّ "**ابنجنّي**" كان واعياً بما يؤدّيه الصّوت أو الفونيم من وظيفة تميزية بين المعاني باعتباره وحدة صوتية ذات معنى في تركيب الكلمة، ويؤدّي تغيّرها إلى تغيّر المعنى، وأتى بأمثلة أخرى كالقصم والقسم، القضم والخضم، الوصيلة والوسيلة ...إلخ، وبهذا استطاع بفضل بحثه الدّائم والدّؤوب الوصول إلى أنّ هناك علاقة طبيعية بين الدّال والمدلول، إذ أنّ « كثيراً من هذه اللّغة وجدته مضاهياً بأجراس أصوات الأفعال الّتي عبّربها عنها»[39].

وبيّن "**ابنجنّي**" أثر ترتيب الحروف وفق سمت الأحداث في إظهار المعنى المراد، فقال: «وذلك أنّهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبر عنها بها، ترتيبها وتقديم ما يضاهي أوّل الحدث، وتأخير ما يضاهي آخره، وتوسيط ما يضاهي أوسطه سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب»[40]، بمعنىأنّ ترتيب الأصوات يقومبدور فعّال في الإبانة عن المعنى المقصود

سواء أكان الصّوت في الأول، أو الوسط، أو الأخير، فلكلّ صوت وظيفته الدّلالية، وذلك تبعا لموقعه منالتّرتيب، وبهذا فهو يذهب مذهب من يجد مناسبة بين الصّوت والمعنى، خاصة عند البلاغيين في التماس علاقة اللّفظ بالمعنى، وهو من باب تسمية الشيء باسم صوته[41].

وتحدّث "**ابنجنّي**" عن ظاهرة الإدغام وبيّن أهمّيتها الصّوتية، وتنقسم إلى نوعين، هما[42]:

الإدغامالأكبر: وهو تقريب صوت من صوت، وهو في الكلام على ضربين: أحدهما أن يلتقي المثلان على الأحكام الّتي يكون عليها الإدّغام، فيدغم الأوّل في الآخر، والأوّل من الحرفين في ذلك على ضربين: ساكن ومتحرك، فالمدّغم الساكن الأصل كطاء قطّع، والآخر أن يلتقي المتقاربان على الأحكام الّتي يسوغ معها الإدّغام، فتقلب أحدهما إلى لفظ صاحبه فتدغمه فيه، وذلك مثل: ودّ، امّحى، وامّاز واصّبَر، واثّاقل عنه.

الإدغام الأصغر: وهو تقريب الحرف من الحرف وإدناؤه منه من غير إدّغام هناك،وهو على ضروب، كالإمالة: وهي أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة، مثل: عالِم، وبالألف نحو الياء مثل: سعى وقضوعليه فإنّ "**ابنجنّي**" كان متفطّنا لظاهرة المماثلة النّاتجة عن التّأثّر الصّوتي الواقع بين بعض الفونيمات وقد عالجها تحت باب الإدغام الأصغر، وأطلق عليها هذا الاسم، إلّا أنّه كان يعلم بأنّها ليست مثل الإدغام، إنّما فيها ما يشبه الإدغام، وهو تقريب الصّوت من الصّوت مثلما يحدث في الإدغام المألوف[43]

وتحظى المماثلة كظاهرة صوتية بأهمّية كبيرة في الدّرس الصّوتي الحديث.

واستخدم العرب قديماً الإدّغام بنوعيه، طلبا للخفة والسّلاسة اللّسانية في التّلفظ بالكلام، وكان أهل تميم أكثر شهرة به، وفضلا عن الإدغام، هناك ظواهر لغوية صوتية أخرى تطرّق إليها "**ابنجنّي**" في كتابه "الخصائص" وبيّن أثرها في البناء التّركيبي للّغة، كالإبدال والإعلال والمخالفة، وغيرها، وقدّم لها تعليلات صوتية خاصة.

4–خاتمة:

وصفوةالقول: إنّ "**ابنجنّي**" خطا بالدّراسة الصّوتية خطاً متقدّمة، لا في عصره فحسب بل في العصر الحديث والمعاصر، إذ استطاع بفعل اجتهاده الدّؤوب،وبحثه الدّائم والمستمرّ في أسرار اللّغة، استدراك العديد من الظّواهر الصّوتية، والاهتمام بدراستها وتوضيحها بالاستقراء والاستدلال والتّحليل والتّأصيل والتّنظير، بالإضافة إلى عنايته بأحوال جميع أصوات المعجم العربيوتقسيمها تقسيما لم تزد عليه الصّوتيات الحديثة شيئا، وتبيين صفاتها وخصائصها وعللهاوقيمها الوظيفية والدّلالية، ولهذه الاجتهادات تجلّيات بارزة وآثار كبيرة في الدّرس الصّوتي الحديث، كفكرة المقطع والفونيم والمماثلة والدّلالة الصّوتية، وغيرها.

وبناء عمّا قدّمهمن فكر واسع ومتطوّر فيعلم الأصوات، فيعدّ رائداً له، وهو من أرسى أسسهوتوصّل إلى نتائج أفادت منها الدّراسات الصّوتية الحديثة، إذ يقول: «وما علمت أنّ أحداً من أصحابنا خاض في هذا الفنّ هذا الخوض، ولا أشبعه هذا الاشباع»[44]، وهكذا، فإنّ جهود "**ابنجنّي**" الصّوتية ستبقى تشكّل مصدراً ثرياً وأساسياً للدّارسين والباحثين في مجال الصّوتيات الحديثة.

قائمة المصادر والمراجع:

[1] – ابن جنّي (أبو الفتح عثمان)، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دط، المكتبة العلمية، دت، ج1 ص33.

[2] – بونيف أحمد، التّعليل الصّوتي عند ابن جنّي(قراءة في كتابي الخصائص وسرّ صناعة الإعراب) مخطوط أطروحة دكتوراه، جامعة جيلالي يابس، سيدي بلعباس، كلّية الآداب واللّغات والفنون، 2018–2019،ص242.

[3] – ينظر: ابن خلكان (أبو العباس شمس الدّين أحمد بن محمّد بن أبو بكر)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، تحقيق: د/ إحسان عباس، د ط، دار صادر، بيروت، د ت، مجلد3، ص 246–248، وينظر: ابن الأنباري (أبو البركات كمال الدّين عبد الرّحمن بن محمّد)، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، د ط، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998، ص287–288، و ينظر: مقدّمةكتاب الخصائص، (بتصرف).

[4] –ابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص287.

[5] –ابن جنّي (أبو الفتح عثمان)، سرّ صناعة الإعراب، دراسة وتحقيق: د/ حسن هنداوي، ط1، دار القلم دمشق، 1985 ص05.

[6] –سليمان سالم علي باقشع، ابن جنّي وجهوده اللّغوية والنّحوية (بحث تخرج)، جامعة العلوم والتكنولوجيا (كلية العلوم الإدارية والإنسانية – لغة عربية)، الجمهورية اليمنية، 2009–2010، ص69.

[7] –ابن جنّي، سرّ صناعة الإعراب، ص 05.

[8] – المصدر نفسه، ص 06.

[9] –ينظر: سميرة بن موسى، ملامح الصوتيات التّركيبية عند ابن جنّي من خلال كتبه الخصائص وسرّ صناعة الإعراب والمنصف، مخطوط رسالة ماجستير، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، كلّية الآداب واللّغات 2011–2012، ص73.

[10] – ابن جنّي، الخصائص، ج1، ص 88– 89.

[11] – بونيف أحمد، التّعليل الصّوتي عند ابن جنّي، ص225.

[12] – ابن جنّي، سرّ صناعة الإعراب، ص08.

[13] – المصدرنفسه، ص9–10.

[14] – المصدر نفسه، ص 13.

[15] – المصدر نفسه، ص14.

[16] – المصدرنفسه، ص09.

[17] – المصدر نفسه، ص08–09.

[18] – المصدرنفسه، ص17.

[19] – المصدر نفسه، ص نفسها.

[20] – المصدر نفسه، ص26.

[21] – المصدرنفسه، ص41.

[22] – المصدر نفسه، ص45.

[23] – المصدر نفسه، ص45–46.

[24] – المصدرنفسه، ص46.

[25] – المصدر نفسه، ص46-48.

[26] – المصدرنفسه، ص60-64.

[27]– ابن جنّي، الخصائص، ج1، ص57.

[28]– ابنجنّي، سرّ صناعة الإعراب، ص65.

[29]–فردينان دي سوسور، علم اللّغة العام، ترجمة: د/ يوئيل يوسف عزيز، مراجعة: د/مالك يوسف المطلبي، دط، دار آفاق عربية، 1985، ص51.

[30]–ينظر: د/ إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ط5، مكتبة الأنجلو مصرية، 1984، ص46.

[31]–ينظر: د/ محمود عكاشة، التحليل اللّغوي في ضوء علم الدّلالة، ط1، دار النشر للجامعات، القاهرة 2005، ص17.

[32]– ابن جنّي، الخصائص، ج3، ص98.

[33]–المصدر نفسه، ص نفسها.

[34]–ينظر: د/ صالح سليم عبد القادر الفاخري، الدلالة الصوتية في اللغة العربية، د ط، المكتب العربي الحديث، مصر، دت ص50.

[35]– ابن جنّي، الخصائص، ج1، ص46-47.

[36]– المصدر نفسه، ج2، ص157-158.

[37]– ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص145-168.

[38]– المصدر نفسه، ج2، ص161.

[39]– المصدرنفسه، ج1، ص65

[40]– المصدرنفسه، ج2، ص162.

[41]–سليمان سالم علي باقشع، ابن جنّي وجهوده اللّغوية والنّحوية، ص81.

[42] – –ينظر: ابن جنّي الخصائص، ج2، ص 139-141.

[43] – –ينظر: سميرة بن موسى، ملامح الصوتيات التّركيبية عند ابن جنّي من خلال كتبه الخصائص وسرّ صناعة الإعراب والمنصف، ص105.

[44]– ابن جنّي، سرّ صناعة الإعراب، ص56.